

## سورة التغابن

مدنيّة في قول الأكثرين. وقال الضحاك: مكّيّة. وقال الكلبي: هي مكية ومدنية<sup>(١)</sup>. وهي ثماني عشرة آية. وعن ابن عباس أن سورة التغابن نزلت بمكة، إلا آيات من آخرها نزلت بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي، شكا إلى رسول الله ﷺ جفاء أهله وولده، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِتٍ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عِدْوًا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ﴾ إلى آخر السورة<sup>(٢)</sup>.

وعن عبد الله بن عمرو<sup>(٣)</sup> قال: قال النبي ﷺ: «ما من مولود يولد إلا وفي تشابيك رأسه مكتوب خمس آيات من فاتحة سورة التغابن»<sup>(٤)</sup>.

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(٥)</sup>  
تقدّم في غير موضع<sup>(٥)</sup>

(١) النكت والعيون ٢٠/٦.

(٢) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ (٩٠٢)، وسيذكره المصنف أيضاً عند تفسير الآية المذكورة.

(٣) في النسخ: عبد الله بن عمر، والتصويب من المصادر الآتية.

(٤) أخرجه ابن حبان في المجروحين ٣/٨١ - ٨٢، والطبراني في مسند الشاميين (٩٠)، وابن الجوزي في الموضوعات (٣١٦) وفي إسناده الوليد بن الوليد العنسي؛ قال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به فيما يروي. وقال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع. وقال ابن كثير في تفسيره ٨/١٣٥: غريب جداً، بل منكر.

وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير ١/٤٤٥ عن عبد الله بن عمرو موقوفاً. قال ابن عرّاق في تنزيه الشريعة ١/١٩٦: وهو أشبه اهـ. وجاء عند الطبراني: خمس آيات من سورة التغابن، دون لفظة: فاتحة.

(٥) ١/٣٣٨ - ٣٣٩، ١٣/٨٩، ٢٠/٢٣٥.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

قال ابن عباس: إن الله خلق بني آدم مؤمناً وكافراً، ويُعيدهم في<sup>(١)</sup> القيامة مؤمناً وكافراً.

وروى أبو سعيد الخُدريُّ قال: حَظَبْنَا النَّبِيَّ ﷺ عَشِيَّةً، فذكر شيئاً مما يكون فقال: «يولد الناس على طبقات شتى: يولد الرجل مؤمناً ويعيش مؤمناً ويموت مؤمناً، ويولد الرجل كافراً ويعيش كافراً ويموت كافراً، ويولد الرجل مؤمناً ويعيش مؤمناً ويموت كافراً، ويولد الرجل كافراً ويعيش كافراً ويموت مؤمناً»<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن مسعود: قال النبيُّ ﷺ: «خلق الله فرعونَ في بطن أمه كافراً، وخلق يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمناً»<sup>(٣)</sup>.

وفي الصحيح من حديث ابن مسعود: «وإن أحدكم ليعملُ بعمل أهل الجنة حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراعٌ أو باع، فيسبقُ عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلُها. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراعٌ أو باع، فيسبقُ عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلُها». خرَّجه البخاريُّ، والترمذيُّ وليس فيه ذكر الباع<sup>(٤)</sup>.

(١) بعدها في (م): يوم. وقول ابن عباس في الوسيط ٣٠٦/٤، وتفسير البغوي ٣٥٢/٤، وتفسير الرازي ٢١/٣٠.

(٢) سلف ٤٢٤/١٦ - ٤٢٥.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٥٤٣)، وابن عدي في الكامل ٢٢٢١/٦، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٠١٩). وفي إسناده أبو هلال الراسبي.

قال النسائي: ليس بالقوي. وقال أحمد بن حنبل: يحتمل في حديثه إلا أنه يخالف في فتادة وهو مضطرب الحديث. قاله الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب ٥٧٧/٣. وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ٢٤٩٨/٧، وأبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان (٢٤٨)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٠٢١) وفيه نصر بن طريف، قال الذهبي في الميزان ٢٥١/٤: قال أحمد: لا يكتب حديثه، وقال النسائي وغيره: متروك. وقال يحيى: من المعروفين بوضع الحديث.

(٤) صحيح البخاري (٦٥٩٤) وسنن الترمذي (٢١٣٧)، وسلف ٢٩٦/١.

وفي صحيح مسلم عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار. وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة»<sup>(١)</sup>.

قال علماؤنا: والمعنى: تعلّق العلم الأزلي بكلّ معلوم، فيجري ما علم وأراد وحكم. فقد يريد إيمان شخص على عموم الأحوال، وقد يريده إلى وقت معلوم. وكذلك الكفر.

وقيل في الكلام محذوف: فمنكم مؤمنٌ ومنكم كافرٌ ومنكم فاسقٌ، فحذف لِمَا في الكلام من الدلالة عليه. قاله الحسن. وقال غيره: لا حذف فيه؛ لأن المقصود [به] ذكر الطرفين<sup>(٢)</sup>. وقال جماعة من أهل العلم: إن الله خلق الخلق ثم كفروا وآمنوا. قالوا: وتامم الكلام: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾. ثم وصفهم فقال: ﴿فَإِنَّكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ [النور: ٤٥] الآية. قالوا: فالله خلقهم، والمشي فعلهم<sup>(٣)</sup>. واختاره الحسين بن الفضل، قال: لو خلقهم مؤمنين وكافرين، لَمَا وصفهم بفعلهم في قوله: ﴿فَإِنَّكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾. واحتجوا بقوله عليه الصلاة والسلام: «كلُّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» الحديث. وقد مضى في «الروم»<sup>(٤)</sup> مستوفى.

قال الضحاك: فمنكم كافرٌ في السرِّ مؤمنٌ في العلانية؛ كالمنافق، ومنكم مؤمنٌ في السرِّ كافرٌ في العلانية؛ كعمّار ودّويه<sup>(٥)</sup>. وقال عطاء بن أبي رباح: فمنكم كافر

(١) صحيح مسلم (١١٢) كتاب القدر، باب كيفية خلق آدمي في بطن أمه. وهو عند أحمد (٢٢٨١٣)، والبخاري (٢٨٩٨) مطول.

(٢) النكت والعيون ٦/٢١ وما بين حاصرتين منه.

(٣) ينظر تفسير البغوي ٤/٣٥٢.

(٤) ٤٢٢/١٦. وأخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨): (٢٢) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٥) تفسير الرازي ٣٠/٢١.

بالله مؤمنٌ بالكواكب، ومنكم مؤمنٌ بالله كافرٌ بالكواكب، يعني في شأن الأنواء<sup>(١)</sup>.  
وقال الزجاج - وهو أحسن الأقوال، والذي عليه الأئمة والجمهور من الأمة - :  
إن الله خلق الكافر، وكُفِّرُهُ فِعْلٌ له وكسب، مع أن الله خالق الكفر. وخلق المؤمن،  
وإيمانه فعلٌ له وكسب، مع أن الله خالق الإيمان. والكافر يكفر ويختار الكفر بعد  
خلق الله إياه؛ لأن الله تعالى قَدَّرَ ذلك عليه وعَلِمَهُ منه. ولا يجوز أن يوجد من كلِّ  
واحد منهما غيرُ الذي قَدَّرَ عليه وعَلِمَهُ منه؛ لأن وجود خلاف المقدور عَجْزٌ، ووجود  
خلاف المعلوم جَهْلٌ، ولا يَلِيْقان بالله تعالى. وفي هذا سلامةٌ من الجبر والقَدَر<sup>(٢)</sup>،  
كما قال الشاعر:

يا ناظرًا في الدِّينِ ما الأَمْرُ لا قَدَرٌ صَحَّ ولا جَبْرٌ<sup>(٣)</sup>  
وقال سيلان: قَدِمَ أعرابيُّ البصرة فقيل له: ما تقول في القَدَر؟ فقال: أمرٌ تغالت  
فيه الظُّنون، واختلف فيه المختلفون؛ فالواجبُ أن نَرُدَّ ما أشكل علينا من حكمه إلى  
ما سبق من علمه.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَهُ فَأَحْسَنَ صُوْرَهُ وَإِلَيْهِ  
الْمَصِيْرُ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ تقدّم في غير موضع<sup>(٤)</sup>، أي: خلقها  
حقًا يقينًا لا ريب فيه. وقيل: الباء بمعنى اللام، أي: خلقهما<sup>(٥)</sup> للحق، وهو أن

(١) تفسير البغوي ٤/٣٥٢، والمحرر الوجيز ٥/٣١٨، وزاد المسير ٨/٢٨٠ - ٢٨١، والأنواء جمع نوء وهو النجم مال للغروب، أو سقوط النجم في المغرب مع الفجر، وطلوع آخر يقابله من ساعته في المشرق. القاموس (ناه).

(٢) ذكر نحو هذا الكلام البغوي في تفسيره ٤/٣٥٢ ولم ينسبه.

(٣) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ٢/٢٥١.

(٤) ٣١٣/٨، ٤٢٩.

(٥) في (د) و(ق) و(م): أي خلقها.

يَجْزِي الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا، وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ يعني آدم عليه السلام، خلقه بيده كرامة له. قاله مقاتل. الثاني: جميع الخلائق<sup>(١)</sup>. وقد مضى معنى التصوير<sup>(٢)</sup>، وأنه التخطيط والتشكيل.

فإن قيل: كيف أحسن صورهم؟ قيل له: جعلهم أحسن الحيوان كله وأبهاء صورة؛ بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور. ومن حُسن صورته أنه خُلِقَ منتصباً غير مُنكَبٍ، كما قال عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾<sup>(٣)</sup> [التين: ٤] على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى. ﴿وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع، فيجازي كلًا بعلمه.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلَمُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿٤﴾

تقدّم في غير موضع. فهو عالم الغيب والشهادة، لا يخفى عليه شيء.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٥﴾

الخطاب لقريش، أي: ألم يأتكم خبر كفار الأمم الماضية. ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: عوقبوا ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجه. وقد تقدّم<sup>(٤)</sup>.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَعَالُوا أَبشَرُ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَعْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ عَنِّي حَمِيدٌ﴾ ﴿٦﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: هذا العذاب لهم بكفرهم بالرسول تأتيمهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾

(١) النكت والعيون ٢١/٦.

(٢) ٣٩٣/٢٠.

(٣) الكشاف ١١٣/٤.

(٤) ٣٠١/١.

أي: بالدلائل الواضحة. ﴿فَقَالُوا أَبَشْرٌ يَهْدُونَنَا﴾: أنكروا أن يكون الرسول من البشر. وارتفع «أبشراً» على الابتداء. وقيل: بإضمار فعل، والجمعُ على معنى بشر، ولهذا قال: ﴿يَهْدُونَنَا﴾، ولم يقل: يهدينا. وقد يأتي الواحد بمعنى الجمع فيكون اسماً للجنس، وواحدُه إنسانٌ؛ لا واحد له من لفظه<sup>(١)</sup>. وقد يأتي الجمع بمعنى الواحد، نحو قوله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١].

﴿فَكَفَرُوا﴾ أي: بهذا القول، إذ قالوه استصغاراً ولم يعلموا أن الله يبعث من يشاء إلى عباده. وقيل: كفروا بالرسول وتولوا عن البرهان، وأعرضوا عن الإيمان والموعظة. ﴿وَأَسْتَفَى اللَّهُ﴾ أي: بسلطانه عن طاعة عباده. قاله مقاتل. وقيل: استغنى الله بما أظهره لهم من البرهان وأوضحه لهم من البيان، عن زيادة تدعو إلى الرشد وتقود إلى الهداية<sup>(٢)</sup>.

قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكِ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ أي: ظنوا، والزعمُ هو القول بالظن. وقال شريح: لكل شيء كُنيَّة، وكُنيَّةُ الكذب زعموا<sup>(٣)</sup>. قيل: نزلت في العاص بن وائل السهمي مع خباب، حسب ما تقدم بيانه في آخر سورة مريم<sup>(٤)</sup>، ثم عمَّت كلَّ كافر. ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ أي: لتُخْرَجَنَّ من قبوركم أحياء. ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ﴾: لتُخْبِرَنَّ. ﴿بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي: بأعمالكم. ﴿وَذَلِكِ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إذ الإعادة أسهل من الابتداء.

(١) ينظر تفسير البغوي ٣٥٢/٤.

(٢) النكت والعيون ٢١/٦.

(٣) الكشاف ١١٤/٤، وتفسير الرازي ٢٣/٣٠، وأخرجه ابن أبي شيبة ٦٣٧/٨ - ٦٣٨.

(٤) ٥٠٥/١٣.

قوله تعالى: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٨)

قوله تعالى: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أمرهم بالإيمان بعد أن عرفهم قيام الساعة. ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ وهو القرآن، وهو نورٌ يُهتدى به من ظلمة الضلال. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٩)

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ العاملُ في «يَوْمَ» «لَتُنَبَّؤَنَّ» أو «خَبِيرٌ» لِمَا فِيهِ مِنْ مَعْنَى الْوَعِيدِ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَاللَّهِ يَعْاقِبُكُمْ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ. أو بإضمار: اذكر<sup>(١)</sup>. وَالغَيْبُ: النِّقْصُ. يُقَالُ: غَبَّتْ غَبْنًا: إِذَا أَخَذَ الشَّيْءُ مِنْهُ بَدُونَ قِيَمَتِهِ.

وقراءةُ العامة: «يَجْمَعُكُمْ» بالياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فأخبر، ولذا ذكر اسم الله أولاً. وقرأ نصر وابنُ أبي إسحاق والجحدريُّ ويعقوبُ وسلام: «نجمعكم» بالنون<sup>(٢)</sup>؛ اعتباراً بقوله: ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾.

ويومُ الجمع: يومُ يجمع الله الأولين والآخِرِينَ وَالْإِنْسَ وَالْجِنَّ وَأَهْلَ السَّمَاءِ وَأَهْلَ الْأَرْضِ. وقيل: هو يومُ يجمع الله فيه بين كلِّ عبدٍ وعمله. وقيل: لأنه يجمع فيه بين الظَّالِمِ وَالْمُظْلَمِ. وقيل: لأنه يجمع فيه بين كلِّ نبيٍّ وأمته. وقيل: لأنه يجمع فيه بين ثواب أهل الطاعات وعقاب أهل المعاصي. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ أي: يومُ القيامة. قال: وما أرتجي بالعيش في دار فرقةٍ أَلَا إِنَّمَا الرَّاحَاتُ يَوْمَ التَّغَابِنِ وَسَمِّيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَوْمَ التَّغَابُنِ؛ لِأَنَّهُ غَبَّنَ فِيهِ أَهْلَ الْجَنَّةِ أَهْلَ النَّارِ<sup>(٣)</sup>. أي: إنَّ

(١) الكشاف ٤/١١٥، ووقع في (ظ): اذكروا، بدل: اذكر.

(٢) قراءة يعقوب - وهو من العشرة - في النشر ٢/٣٨٨، وقراءة سلام في القراءات الشاذة ص ١٥٧.

(٣) النكت والعيون ٦/٢٣.

أهل الجنة أخذوا الجنة، وأخذ أهل النار النار على طريق المبادلة، فوقع الغبن لأجل مبادلتهم الخير بالشر، والجيد بالردىء، والنعيم بالعذاب<sup>(١)</sup>. يقال: غَبِنْتُ فلاناً: إذا بايعته أو شاربته، فكان النقص عليه والغلبة لك. وكذا أهل الجنة وأهل النار؛ على ما يأتي بيانه. ويقال: غَبِنْتُ الثوب وخبنته: إذا طال عن مقدارك فخطت منه شيئاً، فهو نقصان أيضاً. والمغابن: ما انتنى من الخلق نحو الإبطين والفخذين. قال المفسرون: فالمغبون من غبن أهله ومنازله في الجنة. ويظهر يومئذ غبن كل كافر بتركه<sup>(٢)</sup> الإيمان، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان وتضييعه الأيام<sup>(٣)</sup>. قال الزجاج<sup>(٤)</sup>: وَيَغِين مَنْ ارتفعت منزلته في الجنة من كان دون منزلته.

الثانية: فإن قيل: فأى معاملة وقعت بينهما حتى يقع الغبن فيها. قيل له: هو تمثيل الغبن في الشراء والبيع<sup>(٥)</sup>، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة: ١٦]. ولما ذكر أن الكفار اشتروا الضلالة بالهدى وما ربحوا في تجارتهم بل خسروا، ذكر أيضاً أنهم غبنوا، وذلك أن أهل الجنة اشتروا الآخرة بترك الدنيا، واشتري أهل النار الدنيا بترك الآخرة. وهذا نوع مبادلة اتساعاً ومجازاً.

وقد فرّق الله سبحانه وتعالى الخلق فريقين: فريقاً للجنة وفريقاً للنار. ومنازل الكل موضوعة في الجنة والنار. فقد يسبق الخذلان على العبد - كما بيّناه في هذه السورة<sup>(٦)</sup> وغيرها - فيكون من أهل النار، فيحصل الموفق على منزل المخذول، ومنزل الموفق في النار للمخذول، فكأنه وقع التبادل فحصل التغابن. والأمثال موضوعة للبيان في حكم اللغة والقرآن. وذلك كله مجموع من نشر الآثار، وقد جاءت

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١٨٠٣/٤ .

(٢) في (د) و(م): بترك.

(٣) تفسير البغوي ٣٥٣/٤ .

(٤) في معاني القرآن ١٨٠/٥ .

(٥) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ١٨٠٣/٤ .

(٦) في تفسير الآية الثانية منها.

مفرقة في هذا الكتاب<sup>(١)</sup>. وقد يُخبر عن هذا التبادل بالوراثه كما بيّناه في «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ»<sup>(٢)</sup>. والله أعلم. وقد يقع التغابن في غير ذلك اليوم على ما يأتي بيانه بعد، ولكنه أراد التغابن الذي لا جُبران لنهايته.

وقال الحسن وقتادة: بلغنا أنّ التغابن في ثلاثة أصناف: رجلٍ عِلِمَ علماً فعلمه وضيعه هو ولم يعمل به، فشقي به، وعَمِلَ به مَنْ تعلّمه منه فنجا به. ورجلٍ اكتسب مالا من وجوه يُسأل عنها وشحّ عليه، وفرط في طاعة ربه بسببه، ولم يعمل فيه خيراً، وتركه لوارث لا حساب عليه فيه، فعمل ذلك الوارث فيه بطاعة ربه. ورجلٍ كان له عبداً، فعمل العبد بطاعة ربه فسعد، وعمل السيد بمعصية ربه فشقي.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى يُقيم الرجل والمرأة يوم القيامة بين يديه، فيقول الله تعالى لهما: قولاً فما أنتما بقائلين، فيقول الرجل: يا ربّ أوجبتْ نفقتها عليّ، فتعسّفْتُها من حلال وحرام، وهؤلاء الخصوم يطلبون ذلك، ولم يَبْقَ لي ما أوفي به، فتقول المرأة: يا ربّ وما عسى أن أقول، اكتسبه حراماً وأكلته حلالاً، وعصاك في مَرْضاتي ولم أرضَ له بذلك، فبعداً له وسُحقاً، فيقول الله تعالى: قد صدقتِ، فيؤمرُ به إلى النار ويؤمر بها إلى الجنة، فَتَطْلُعُ عليه من طبقات الجنة وتقول له: غَبْنَاكَ غَبْنًاكَ، سَعِدْنَا بما شَقِيتِ أنتَ به» فذلك يوم التغابن<sup>(٣)</sup>.

الثالثة: قال ابن العربي<sup>(٤)</sup>: استدل علماؤنا بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ على أنه لا يجوز الغبن في المعاملة الدنيوية؛ لأن الله تعالى خصّص التغابن بيوم القيامة فقال: «ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ» وهذا الاختصاص يُفيد أنه لا غبن في الدنيا، فكلُّ مَنْ اطَّلَعَ

(١) ينظر ١/٢٩٦، ١٥/١٥ - ١٦، وص ٦-٧ من هذا الجزء. والكلام السالف من أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٨٠٣ - ١٨٠٤.

(٢) ١٥/١٦ - ١٦.

(٣) لم نقف عليه، والضعف في سياقه ظاهر.

(٤) في أحكام القرآن ٤/١٨٠٤ - ١٨٠٥.

على غَبْنٍ فِي مَبِيعٍ، فإنه مردودٌ إذا زاد على الثُلث. واختاره البغداديون واحتجوا عليه بوجوه: منها قوله ﷺ لِحَبَّانِ بْنِ مُنْقِذٍ: «إِذَا بَايَعْتَ فَقُلْ: لَا خِلَابَةَ، وَلَكَ الْخِيَارُ ثَلَاثًا»<sup>(١)</sup>. وهذا فيه نظرٌ طويلٌ بيِّناه في مسائل الخلاف. نُكِّتُهُ أَنْ الْغَبْنَ فِي الدُّنْيَا مَمْنُوعٌ بِإِجْمَاعٍ فِي حُكْمِ الدِّينِ، إِذْ هُوَ مِنْ بَابِ الْخِدَاعِ الْمَحْرَمِ شَرْعاً فِي كُلِّ مَلَّةٍ، لَكِنَّ الْيَسِيرَ مِنْهُ لَا يُمْكِنُ الْإِحْتِرَازَ عَنْهُ لِأَحَدٍ، فَمَضَى فِي الْبَيْعِ، إِذْ لَوْ حَكَمْنَا بَرْدَهُ مَا نَفَذَ بَيْعٌ أَبَدًا؛ لِأَنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ كَثِيرًا أُمْكِنَ الْإِحْتِرَازَ مِنْهُ؛ فَوَجِبَ الرُّدُّ بِهِ. وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ أَصْلٌ فِي الشَّرِيعَةِ مَعْلُومٌ، فَقَدَّرَ عُلَمَاؤُنَا الثَّلَثَ لِهَذَا الْحَدِّ، إِذْ رَأَوْهُ فِي الْوَصِيَّةِ وَغَيْرِهَا. وَيَكُونُ مَعْنَى الْآيَةِ عَلَى هَذَا: ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابِنِ الْجَائِزِ مَطْلَقًا مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ. أَوْ: ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابِنِ الَّذِي لَا يُسْتَدْرَكُ أَبَدًا؛ لِأَنَّ تَغَابِنَ الدُّنْيَا يُسْتَدْرَكُ بِوَجْهَيْنِ: إِمَّا بَرْدٌ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ، وَإِمَّا بِرِبْحٍ فِي بَيْعٍ آخَرَ وَسِلْعَةً أُخْرَى. فَأَمَّا مَنْ خَسِرَ الْجَنَّةَ فَلَا دَرَكَ لَهُ أَبَدًا. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ عُلَمَاءِ الصُّوفِيَّةِ: إِنْ اللَّهُ كَتَبَ الْغَبْنَ عَلَى الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، فَلَا يَلْقَى أَحَدٌ رَبَّهُ إِلَّا مَغْبُونًا؛ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ الْإِسْتِيفَاءَ لِلْعَمَلِ حَتَّى يَحْضَلَ لَهُ اسْتِيفَاءُ الثَّوَابِ. وَفِي الْأَثَرِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَلْقَى اللَّهُ أَحَدًا إِلَّا نَادِمًا؛ إِنْ كَانَ مَسِيئًا أَنْ لَمْ يَحْسَنْ، وَإِنْ كَانَ مُحْسِنًا أَنْ لَمْ يَزِدْ»<sup>(٢)</sup>.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾ قرأ نافع وابن عامر بالنون فيهما، والباقون بالياء<sup>(٣)</sup>.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني: القرآن ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ لَمَّا ذَكَرَ مَا لِلْمُؤْمِنِينَ ذَكَرَ مَا لِلْكَافِرِينَ؛ كَمَا تَقَدَّمَ فِي

(١) سلف ٤/٤٣٥.

(٢) في أحكام القرآن لابن العربي (والكلام منه): ... إذ لم يحسن، .. إذ لم يزد. ولم نقف عليه.

(٣) السبعة ص ٦٣٨، والتيسير ص ٢١١.

غير موضع.

قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بإرادته وقضائه<sup>(١)</sup>. وقال الفراء: يريد: إلا بأمر الله<sup>(٢)</sup>. وقيل: إلا بعلم الله<sup>(٣)</sup>. وقيل: سبب نزولها أن الكفار قالوا: لو كان ما عليه المسلمون حقاً لصانهم الله عن المصائب في الدنيا، فبين الله تعالى أن ما أصاب من مصيبة في نفس أو مال أو قول أو فعل، يقتضي همماً أو يُوجب عقاباً عاجلاً أو آجلاً، فبعلم الله وقضائه.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ أي: يصدق ويعلم أنه لا يصيبه مصيبة إلا بإذن الله<sup>(٤)</sup> ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ للصبر والرضا. وقيل: يُثَبِّتَهُ عَلَى الْإِيمَانِ. وقال أبو عثمان الحيري<sup>(٥)</sup>: مَنْ صَحَّ إِيمَانُهُ، يَهْدِي اللَّهُ قَلْبَهُ لِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ<sup>(٦)</sup>. وقيل: «وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِي قَلْبَهُ» عند المصيبة، فيقول: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»<sup>(٧)</sup>. قاله ابن جبير. وقال ابن عباس: هو أن يجعل الله في قلبه اليقين ليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه<sup>(٨)</sup>. وقال الكلبي: هو إذا ابْتُلِيَ صَبْرًا، وَإِذَا أُنْعِمَ عَلَيْهِ شُكْرًا، وَإِذَا ظَلَمَ عَقْرًا<sup>(٩)</sup>. وقيل: يَهْدِي قَلْبَهُ إِلَى نَيْلِ الثَّوَابِ فِي الْجَنَّةِ.

(١) تفسير البغوي ٣٥٣/٤.

(٢) معاني القرآن للفراء ١٦١/٣.

(٣) معاني القرآن للزجاج ١٨١/٥.

(٤) تفسير البغوي ٣٥٣/٤.

(٥) في (خ) و(ف) و(م): الجيزي، وهو غلط، والصواب ما أثبتناه.

(٦) زاد المسير ٢٨٣/٨.

(٧) معاني القرآن للفراء ١٦١/٣، والنكت والعيون ٢٣/٦، ونسبه ابن الجوزي في زاد المسير ٢٨٣/٨ لمقاتل.

(٨) أخرجه الطبري ١٢/٢٣.

(٩) النكت والعيون ٢٣/٦، وزاد المسير ٢٨٣/٨.

وقراءة العامة: «يَهْدِ» بفتح الياء وكسر الدال؛ لذكر اسم الله أولاً. وقرأ السلمي وقتادة: «يَهْدَ قَلْبَهُ» بضم الياء وفتح الدال على الفعل المجهول ورفع الباء<sup>(١)</sup>؛ لأنه اسم فعل لم يُسم فاعله.

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف والأعرج: «نَهْدِ» بنونٍ على التعظيم. «قَلْبَهُ» بالنصب<sup>(٢)</sup>. وقرأ عكرمة: «يَهْدَأُ قَلْبَهُ» بهمزة ساكنة ورفع الباء<sup>(٣)</sup>، أي: يسكن ويطمئن. وقرأ مثله مالك بن دينار، إلا أنه لَيِّن الهمزة<sup>(٤)</sup>.

﴿وَاللَّهُ يَكْفُلُ شَيْءًا عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه تسليم من انقاد وسلّم لأمره، ولا كراهة من كرهه.

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾

أي: هونوا على أنفسكم المصائب، واشتغلوا بطاعة الله، واعملوا بكتابه<sup>(٥)</sup>، وأطيعوا الرسل في العمل بسنته، فإن توليتم عن الطاعة، فليس على الرسول إلا التبليغ. ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود سواه، ولا خالق غيره، فعليه توكلوا.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِتٍ مِن آزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدْوًا لَّكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَنَصَّفَحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِتٍ مِن آزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدْوًا لَّكُمْ﴾

(١) قراءة السلمي في القراءات الشاذة ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٢) ذكرها عن طلحة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٥٧ ، وذكرها عن الأعرج - وهو عبد الله بن هرمز - أبو حيان في البحر المحيط ٢٧٨/٨ .

(٣) المحتسب ٢/٣٢٣ .

(٤) ذكر هذه القراءات ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٥٧ ونسبها لعمر بن فائد.

(٥) في (ظ): واطلوا كتابه.

لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ ﴿١﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي، شكا إلى النبي ﷺ جفاء أهله وولده؛ فنزلت، ذكره النحاس<sup>(١)</sup>. وحكاه الطبري<sup>(٢)</sup> عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة التغابن كلها بمكة إلا هؤلاء الآيات: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِتٍ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾ نزلت في عوف بن مالك الأشجعي كان ذا أهل وولد، وكان إذا أراد العزوَ بَكُوا إليه ورقفوه فقالوا: إلى مَنْ تَدْعُنَا؟ فيرقُ فيقيم، فنزلت: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِتٍ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾ الآية كلها بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي. وبقيت الآيات إلى آخر السورة بالمدينة.

وروى الترمذي<sup>(٣)</sup> عن ابن عباس - وسأله رجل عن هذه الآية ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِتٍ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ﴾ - قال: هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة، وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا النبي ﷺ، فلما أتوا النبي ﷺ، رأوا الناس قد فقهُوا في الدين؛ هموا أن يعاقبوهم، فأنزل الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِتٍ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ﴾ الآية. [قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

الثانية: قال القاضي أبو بكر بن العربي<sup>(٤)</sup>: هذا يبيِّن وجه العداوة، فإن العدو لم يكن عدوًّا لذاته، وإنما كان عدوًّا بفعله. فإذا فعل الزوج والولد فعل العدو، كان عدوًّا، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد وبين الطاعة. وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان قعد لابن آدم في طريق الإيمان، فقال له: أتؤمن وتذر دينك<sup>(٥)</sup> ودين آبائك، فخالفه فأمن. ثم قعد له على طريق

(١) سلف أول السورة.

(٢) في تفسيره ١٥/٢٣.

(٣) برقم (٢٣١٧)، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في أحكام القرآن ١٨٠٦/٤.

(٥) في (خ) و(د) و(ز) و(ظ) و(ق): وتذر ذريتك.

الهجرة، فقال له: أتهاجرُ وتتركُ مالك وأهلك، فخالَفَه فهاجر. ثم قعد له على طريق الجهاد، فقال له: أتجاهدُ فتقتلَ نفسك، فننكحَ نساؤك، ويُقسَمَ مالك، فخالَفَه فجاهدَ فقتل، فحقَّ على الله أن يُدخله الجنة»<sup>(١)</sup>.

وقعود الشيطان يكون بوجهين:

أحدهما: يكون بالوسوسة.

والثاني: بأن يحمل على ما يريد من ذلك الزوج والولد والصاحب، قال الله تعالى: ﴿وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرْبَانًا فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥]. وفي حكمة عيسى عليه السلام: مَنْ اتَّخَذَ أَهْلًا وَمَالًا وَوَلَدًا، كَانَ لِلدُّنْيَا عَبْدًا. وفي صحيح الحديث بيان أدنى من ذلك في حال العبد، قال النبي ﷺ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهَمِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْقَطِيفَةِ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَبَّكَ فَلَا انْتَقَشَ»<sup>(٢)</sup>. ولا دناءة أعظم من عبادة الدينار والدرهم، ولا همّة أحسن من همّة ترتفع بثوب جديد<sup>(٣)</sup>.

الثالثة: كما أن الرجل يكون له ولده وزوجه عدواً، كذلك المرأة يكون لها زوجها وولدها عدواً بهذا المعنى بعينه. وعمومُ قوله: «مِنْ أَزْوَاجِكُمْ» يدخل فيه الذكر والأنثى؛ لدخولهما في كل آية. والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَأَحْذَرُوهُمْ﴾ معناه على أنفسكم. والحدْرُ على النفس يكون

(١) لم يخرج البخاري في صحيحه كما قال المصنف، لكن أخرجه في التاريخ الكبير ١٨٨/٤ من حديث سيرة بن الفاكه بنحوه، وسلف ١٤٢/١٠ من حديث سيرة بن الفاكه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٨٧) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه. وقوله: تَعَسَّ: أي عثر وانكبَّ لوجهه، وهو دعاء عليه بالهلاك والخميصة: هي ثوب خَزٌّ أو صوف مُعْلَم، وقيل: لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء مُعْلَمة. والقטיפه: هي كساء له خَلْل. وانتكس: أي انقلب على رأسه، وهو دعاء عليه بالخيبة. وقوله: وإذا شبك فلا انتقش: أي إذا شاكته شوكة، فلا يقدر على انتقاشها، وهو إخراجها بالمنتقاش. النهاية (تعس) و(خمص) و(قطف) و(نكس) و(شوك). وسلف ٢٥٤/١٩ - ٢٥٥.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١٨٠٧/٤، والمسألان الآيتان منه.

بوجهين: إمّا لضرر في البدن، وإمّا لضرر في الدين. وضررُ البدن يتعلّق بالدينا، وضررُ الدين يتعلّق بالآخرة. فحذّر الله سبحانه العبد من ذلك وأنذره به.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَلِإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾<sup>(١)</sup> روى الطَّبْرِيُّ<sup>(١)</sup> عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ﴾ قال: كان الرجل يريد أن يأتي النبي ﷺ، فيقول له أهله: أين تذهب وتدعنا؟ قال: فإذا أسلم وفقه قال: لأرجعن إلى الذين كانوا ينهون عن هذا الأمر، فلأفعلن ولأفعلن، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلِإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ﴾ قال: ما عادوهم في الدنيا، ولكن حملهم<sup>(٢)</sup> مودّتهم لهم<sup>(٣)</sup> على أن أخذوا لهم الحرام، فأعطوه إيّاهم.

والآية عامة في كلّ معصية يرتكبها الإنسان بسبب الأهل والولد، وخصوص السبب لا يمنع عموم الحكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(٤)</sup>

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: بلاء واختبار يحملكم على كسب الحرام ومنع حقّ الله تعالى، فلا تطيعوهم في معصية الله. وفي الحديث: «يؤتَى برجل يوم القيامة فيقال: أكل عياله حسناته»<sup>(٤)</sup>. وعن بعض السلف: العيال

(١) في تفسيره ١٤/٢٣.

(٢) في (م): حملتهم.

(٣) لفظة: لهم، ليست في (د) و(م).

(٤) الكشاف ١١٦/٤، ولم نقف عليه مرفوعاً، لكن أخرجه ابن أبي الدنيا في العيال (٤٥١)، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٩٣/١، وأبو نعيم في الحلية ٨١/٧ عن سفيان الثوري بلفظ: يؤمر بالرجل يوم القيامة إلى النار، فيقال: هذا عياله أكلوا حسناته. قال الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار ٤٢/٢: غريب مرفوعاً. وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٧٣: لم أره مرفوعاً.

سُوس الطاعات<sup>(١)</sup>. وقال القُتَيْبِيُّ: «فِتْنَةٌ» أي: إغرام، يقال: فِتِنَ الرجل بالمرأة، أي: شُغِفَ بها<sup>(٢)</sup>. وقيل: «فِتْنَةٌ»: مِخْنَةٌ. ومنه قول الشاعر:

لَقَدْ فِتِنَ النَّاسُ فِي دِينِهِمْ      وَخَلَّى ابْنُ عَفَّانٍ شَرًّا طَوِيلًا<sup>(٣)</sup>

وقال ابن مسعود: لا يقولنَّ أحدكم: اللَّهُمَّ اغْصِنِي مِنَ الْفِتْنَةِ، فإنه ليس أحدٌ منكم يرجع إلى مال وأهل وولد إلا وهو مشتملٌ على فتنة، ولكن ليقُل: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ<sup>(٤)</sup>.

وقال الحسن في قوله تعالى: «إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ»: أدخل «مِنْ» للتبويض؛ لأن كلهم ليسوا بأعداء. ولم يذكر «مِنْ» في قوله تعالى: «إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ» لأنهما لا يخلوان من الفتنة، واشتغال القلب بهما<sup>(٥)</sup>.

وروى الترمذي وغيره عن عبد الله بن بُرَيْدَةَ عن أبيه قال: رأيت النبي ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين عليهما السلام وعليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ، فحملهما ووضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾». نظرت إلى هذين الصبيَّين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما»، ثم أخذ في خُطْبَتِهِ<sup>(٦)</sup>.

﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يعني الجنة، فهي الغاية، ولا أجر أعظم منها في قول

(١) الكشاف ١١٦/٤ .

(٢) في (ظ): غرم بها، والكلام من تفسير غريب القرآن ص ٤٦٩ .

(٣) أورده المرزباني في معجم الشعراء ص ٢٤٠، والبغدادي في خزنة الأدب ٤١٩/٩ ونسباه لكثير بن عبد الله النهشلي، ونسبه ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٤٧٢/١ للفرزدق.

(٤) تفسير البغوي ٣٥٤/٤، والمحزر الوجيز ٣٢٠/٥ .

(٥) أورده هذا القول البغوي في تفسيره ٣٥٤/٤ ولم ينسبه. ونقله ابن الجوزي في زاد المسير ٢٨٥/٥ عن الفراء.

(٦) سنن الترمذي (٣٧٧٤) وقال: هذا حديث حسن غريب، إنما نعرفه من حديث الحسين بن واقد. وهو عند أحمد (٢٢٩٩٥)، وأبي داود (١١٠٩)، والنسائي ١٠٨/٣، ١٩٢، وابن ماجه (٣٦٠٠).

المفسرين. وفي الصحيحين<sup>(١)</sup> - واللفظ للبخاري - عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم نعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك، فيقول: أجل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً»<sup>(٢)</sup>. وقد تقدم.

ولا شك في أن الرضا غاية الآمال. وأنشد الصوفية في تحقيق ذلك:

امتحن الله به خلقه فالنار والجنة في قبضته  
فهجره أعظم من ناره ووصله أطيّب من جنّته<sup>(٣)</sup>

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقْ شَحْحَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكورٌ حلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: ذهب جماعة من أهل التأويل إلى أن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى:

﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، منهم قتادة والربيع بن أنس والسدي وابن زيد<sup>(٤)</sup>. ذكر الطبري<sup>(٥)</sup>: وحدثني يونس بن عبد الأعلى قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ قال: جاء أمر

(١) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٨٠٨ - والكلام منه - : وعندني ما هو أعظم منها وهو ما ثبت في الصحيح...

(٢) صحيح البخاري (٦٥٤٩)، وصحيح مسلم (٢٨٢٩)، وسلف ٥٨/٥ مختصراً.

(٣) أوردهما أحمد بن محمد المقرئ التلمساني في نفخ الطيب ٣٩/٢.

(٤) أخرج قولهم الطبري ٥/٦٤٢ - ٦٤٣.

(٥) في تفسيره ٥/٦٤٣.

شديد، قال<sup>(١)</sup>: «وَمَنْ يَعْرِفُ قَدْرَ هَذَا أَوْ يَبْلُغُهُ؟ فَلَمَّا عَرَفَ اللَّهُ أَنَّهُ قَدْ اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، نَسَخَهَا عَنْهُمْ وَجَاءَ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْأُخْرَى فَقَالَ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾».

وقيل: هي محكمة لا نسخ فيها. وقال ابن عباس: قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ إنها لم تنسخ، ولكن حقُّ تقاته أن يجاهد لله حقَّ جهاده، ولا يأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم. وقد تقدم<sup>(٢)</sup>.

الثانية: فإن قيل: فإذا كانت هذه الآية محكمة غير منسوخة، فما وجهُ قوله في سورة التغابن: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، وكيف يجوز اجتماع الأمر باتقاء الله حقَّ تقاته، والأمر باتقائه ما استطعنا، والأمر باتقائه حقَّ تقاته إيجاب القرآن بغير خصوص ولا وصلٍ بشرط، والأمر باتقائه ما استطعنا أمرٌ باتقائه موصولاً بشرط؟

قيل له: قوله: «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» بمعزلٍ ممَّا دلَّ عليه قوله تعالى: «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ». وإنما عنى بقوله: «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» فاتقوا الله أيها الناس وراقبوه فيما جعل فتنةً لكم من أموالكم وأولادكم أن تغلبكم فتنتهم، وتصدِّكم عن الواجب لله عليكم من الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام، فتركوا الهجرة ما استطعتم، بمعنى وأنتم للهجرة مستطيعين. وذلك أن الله جلَّ ثناؤه قد كان عذر من لم يقدر على الهجرة بتركها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمُؤْمِنِينَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ [النساء: ٩٧-٩٩]. فأخبر أنه قد عفا عمَّن لا يستطيع حيلةً ولا يهتدي سبيلاً بالإقامة في دار الشرك، فكذلك معنى قوله: «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» في الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام أن تركوها بفتنة أموالكم وأولادكم. وممَّا يدلُّ على صحة هذا أن قوله: «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» عقيبُ قوله:

(١) في (م): قالوا.

(٢) ٢٣٨/٥، وقد رجح المصنف هناك أن هذه الآية: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ هي بيان للتي في آل عمران، والمعنى: فاتقوا الله حق تقاته ما استطعتم، لأن النسخ إنما يكون عند عدم الجمع، والجمع ممكن فهو أولى. اهـ. وهذا ما ذهب إليه النحاس في الناسخ والمنسوخ ١٢٩/٢، ومكي في ناسخ القرآن ومنسوخه ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَكُ مِنْ أَرْزُقِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ﴾ ولا خلاف بين السلف من أهل العلم بتأويل القرآن أن هذه الآيات نزلت بسبب قوم<sup>(١)</sup> تأخروا عن الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام بثبیط أولادهم إيتاهم عن ذلك، حسب ما تقدم<sup>(٢)</sup>. وهذا كله اختيار الطبري<sup>(٣)</sup>.

وقيل: «فَأْتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» فيما تُطَوِّع به من نافلة أو صدقة، فإنه لَمَّا نزل قوله تعالى: ﴿أَتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾، اشتدَّ على القوم فقاموا حتى ورمت عراقبيهم<sup>(٤)</sup> وتقرَّحت جباههم، فأنزل الله تعالى تخفيفاً عنهم: ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ فنسخت الأولى. قاله ابن جبير. قال الماوردي<sup>(٥)</sup>: ويحتمل إن لم يثبت هذا النقل أن المُكْرَةَ على المعصية غير مؤاخذ بها؛ لأنه لا يستطيع اتقاءها.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ أي: اسمعوا ما تُوعظون به، وأطيعوا فيما تؤمرون به وتُنهَوْنَ عنه. وقال مقاتل: «اسْمَعُوا» أي: أصغوا إلى ما ينزل عليكم من كتاب الله، وهو الأصل في السماع. «وَأَطِيعُوا» لرسوله فيما أمركم أو نهاكم. وقال قتادة: عليهما بُويع النبي ﷺ على السمع والطاعة<sup>(٦)</sup>. وقيل: «وَاسْمَعُوا» أي: اقبلوا ما تسمعون، وعبر عنه بالسماع لأنه فائدته<sup>(٧)</sup>.

قلت: وقد تغلغل في هذه الآية الحجاج حين تلاها وقصرها على عبد الملك بن مروان فقال: ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ هي لعبد الملك بن مروان أمين

(١) بعدها في (خ) و(ز) و(ظ) و(ف) و(ق) و(م): كفار، والتصويب من (د)، ويؤيده ما جاء في الباب لابن عادل الحنبلي ١٣٩/١٩، والكلام فيه قال.. نزلت بسبب قوم كانوا تأخروا..

(٢) في الآية (١٤).

(٣) في تفسيره ١٤/٢٣.

(٤) العراقيب جمع عرقوب: وهو عصب غليظ فوق عَقَب الإنسان. القاموس (عرقب).

(٥) في النكت والعيون ٢٦/٦ وما قبله منه.

(٦) النكت والعيون ٢٦/٦.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٨١٠.

الله وخليفته، ليس فيها مثنوية، والله لو أمرت رجلاً أن يخرج من باب المسجد، فخرج من غيره لحلّ لي دمه<sup>(١)</sup>. وكذب في تأويلها! بل هي للنبي ﷺ أولاً، ثم لأولي الأمر من بعده. دليله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا﴾ قيل: هو الزكاة. قاله ابن عباس. وقيل: هو النفقة في النفل<sup>(٢)</sup>. وقال الضحاك: هو النفقة في الجهاد. وقال الحسن: هو نفقة الرجل لنفسه<sup>(٣)</sup>. قال ابن العربي<sup>(٤)</sup>: وإنما أوقع قائل هذا قوله: «لِأَنْفُسِكُمْ»، وخفي عليه أن نفقة النفل والفرض في الصدقة هي نفقة الرجل على نفسه، قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]. وكل ما يفعله الرجل من خير، وإنما هو لنفسه. والصحيح أنها عامة. ورؤي عن النبي ﷺ أنه قال له رجل: عندي دينار؟ قال: «أنفقهُ على نفسك» قال: عندي آخر؟ قال: «أنفقهُ على عيالك» قال: عندي آخر؟ قال: «أنفقهُ على ولدك» قال: عندي آخر: قال: «تصدق به»<sup>(٥)</sup>. فبدأ بالنفس والأهل والولد وجعل الصدقة بعد ذلك. وهو الأصل في الشرع.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ «خيراً» نصب بفعل مضمر عند سيبويه<sup>(٦)</sup>؛ دلّ عليه: «وَأَنْفِقُوا». كأنه قال: ايتوا في الإنفاق خيراً لأنفسكم، أو قدّموا خيراً لأنفسكم من أموالكم. وهو عند الكسائي والقرّاء نعتٌ لمصدر محذوف، أي: أنفقوا إنفاقاً خيراً لأنفسكم. وهو عند أبي عبيدة<sup>(٧)</sup> خبرٌ كان مضمرة، أي: يكن خيراً

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٤٣).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨١٠ دون أن ينسب القول الأول.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٦، وزاد المسير ٨/ ٢٨٦.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٨١٠.

(٥) أخرجه أحمد (٧٤١٩)، وأبو داود (١٦٩١) من حديث أبي هريرة ؓ بنحوه، وجاء عند أبي داود تقديم الولد على الزوجة.

(٦) ينظر الكتاب ١/ ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٧) ينظر مجاز القرآن له ١/ ١٤٣.

لكم. وَمَنْ جَعَلَ الْخَيْرَ الْمَالِ فَهُوَ مَنْصُوبٌ بِـ «أَنْفِقُوا»<sup>(١)</sup>.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ تقدم الكلام فيه<sup>(٢)</sup>. وكذا ﴿إِنْ تَقْرُبُوا اللَّهَ قَرَّبْنَا حَسَنًا يَضْعُفُهَا لَكُمْ﴾ تقدم الكلام فيه أيضاً في «البقرة» وسورة الحديد<sup>(٣)</sup>. ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ تقدم معنى الشكر في «البقرة»<sup>(٤)</sup>. والحليم: الذي لا يعجل.

قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: ما غاب وحضر. وهو ﴿الْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب القاهر، فهو من صفات الأفعال، ومنه قوله عز وجل: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]، أي: من الله القاهر المُحَكِّم خالق الأشياء. وقال الخطابي: وقد يكون بمعنى نفاسة القدر، يقال منه: عَزَّ يَعَزُّ - بكسر العين - فيتأول<sup>(٥)</sup> معنى العزيز على هذا أنه لا يعادله شيء، وأنه لا مثل له، والله أعلم. ﴿الْحَكِيمُ﴾ في تدبير خلقه. وقال ابن الأنباري: «الْحَكِيمُ»: هو المُحَكِّم لخلق الأشياء، صُرِفَ عَنْ مُفْعَلٍ إِلَى فَعِيلٍ، ومنه قوله عز وجل: ﴿الَّذِي تَلَّا كِتَابَ الْغَيْبِ الْحَكِيمِ﴾ معناه المُحَكِّم، فَصُرِفَ عَنْ مُفْعَلٍ إِلَى فَعِيلٍ. والله أعلم.

(١) ينظر مشكل إعراب القرآن ٢/٧٣٩.

(٢) ٢٠/٣٦٩.

(٣) ٤/٢١٩ وما بعدها، و٢٠/٢٤٣ - ٢٤٤.

(٤) ٢/١٠٤ - ١٠٦.

(٥) في (خ) و(ز) و(ف) و(ق) و(م): فيتناول.